أخبار الطينة والميثاق عند المتقدّمين
دراسة تحليلية نقدية في ضوء الأصول العقدية الإماميّة

المشرف الاول : الدكتور محمد رضا فريدوني
Email: mr-fereydooni@basu.ac.ir
المشرف الثاني : الدكتور علي رضا صفاريان
Email: a.saffarian@basu.ac.ir
رافد منذر جاسم الغرّاوي / كلية العلوم الانسانيّة
Email: haidaree112233@gmail.com
جامعة بو علي سينا / همدان/ جمهورية ايران الاسلاميّة

Reports of īnah and the Covenant among the Early Scholars
A Critical Analytical Study in Light of Imami Doctrinal Principles

Prepared by
First Supervisor: Dr. Mohammad Reza Fereydouni
Second Supervisor: Dr. Ali Reza Safarian
Rafid Munther Jassim Al-Gharawi / Faculty of Humanities
Bou Ali Sina University / Hamadan / Islamic Republic of Iran

ملخص البحث

يتناول هذا البحث أخبار الطينة والميثاق عند المتقدّمين من علماء الإمامية دراسةً تحليليةً نقدية في ضوء الأصول العقدية. ويبيّن أن الأساس القرآني للميثاق يؤكّد إقامة الحجة وترسيخ المسؤولية، لا الجبر وسلب الاختيار كما يوضّح أن أخبار الطينة لا تدل على علّية موجبة للمصير، بل على الاستعدادات والقابليات الفطرية ويكشف البحث أن المتقدّمين أوردوا هذه الأخبار بروح نقلية حذرة دون بناء نظرية كلامية مكتملة ثم تطوّر التعامل معها عند المتكلّمين، ولا سيما الشيخ المفيد والسيد المرتضى و الشيخ الطوسي ره ، عبر التأويل وردّ المتشابه إلى المحكم. ويؤكد البحث انسجام هذه الأخبار مع أصل العدل الإلهي ويخلص إلى أن العمل الاختياري هو مناط الثواب والعقاب. وبذلك تتكامل النصوص الروائية مع الأصول العقلية دون تعارض.

الكلمات المفتاحية : أخبار الطينة، أخبار الميثاق- المتقدّمون، الإمامية الاثنا عشرية- الأصول العقدية – عالم الذر–الخلقة الأولى – الجبر والاختيار – الرواية العقدية- النقد الحديثي – أهل البيت عليهم السلام – الغرّاوي.

Abstract

This study examines the traditions of clay (ṭīna) and the primordial covenant (mīthāq) in early Imami sources through an analytical and critical approach grounded in doctrinal principles. It demonstrates that the Qur'anic foundation of the covenant aims at establishing proof and moral responsibility، not determinism. The traditions of clay indicate innate predispositions and capacities rather than compulsory destiny. Early scholars transmitted these reports cautiously without forming a complete theological theory. Later theologians، especially al-Mufīd، al-Murtaḍā، and al-Ṭūsī، interpreted them in harmony with reason and divine justice. The study affirms that human action remains the basis of accountability. Thus، narrative texts and rational principles are shown to be fully compatible.

١-٢ مقدّمة:

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله الذي ابتدأ الخلق بحكمته، وأجرى سننه في عباده على وفق علمه السابق، والصلاة والسلام على خاتم أنبيائه محمد المصطفى، وعلى آله الطيبين الطاهرين، معدن العلم، وموضع الرسالة، ومختلف الملائكة، وحملة الميثاق الأول، والسرّ المكنون في مراتب الخلق والتكليف.

وبعدُ؛

فإنّ من أدقّ مباحث العقيدة الإماميّة، وأعمقها اتصالًا بفلسفة الخلق والهداية، مبحث أخبار الطينة والميثاق، لما ينطوي عليه من بيانٍ عن سابق العلم الإلهي، ومراتب الخلق، وسرّ التمايز بين أهل الإيمان وأهل الجحود، من غير إخلالٍ بأصل العدل الإلهي، ولا مصادمةٍ لقواعد التكليف والاختيار.

وقد استند هذا المبحث إلى أصلٍ قرآنيّ راسخ، يتمثّل في آيات الميثاق والأخذ الأوّل، وما دلّ على سبق العهد والإشهاد، ثمّ تفرّع في السنّة النبويّة، ولا سيّما في روايات أهل البيت عليهم السلام، الذين خُصّوا بعلم ما كان وما يكون، وأُودِعوا سرّ الخلق والأمر، فكانوا المبيّنين لحقيقة الميثاق، والكاشفين عن معنى الطينة، وحدود دلالتها، ومجال تأثيرها.

وليس الحديث عن الطينة والميثاق حديثًا عن جبرٍ محتوم، ولا عن تفويضٍ منفلت، بل هو بيانٌ دقيق عن الاستعدادات الأوّلية، وقابليات النفوس، وما أُخذ عليها من عهدٍ في عالم الذرّ، ثمّ تُرك للعبد بعد ذلك مجال السعي والاختيار، فيتحقّق الجزاء على وفق العمل، لا على مجرّد الطينة.

وقد تنبّه أعلام الإماميّة المتقدّمون، ولا سيّما في القرنين الثالث والرابع للهجرة، إلى حساسيّة هذا الباب، فتناولوه بحذرٍ علمي، وضبطٍ روائي، فوردت أخبار الطينة والميثاق في مصنّفاتهم على نحوٍ متفرّق، مقرونةً بقرائن ترفع توهّم الجبر، وتؤكّد انسجامها مع

أصول العدل، كما نجد ذلك عند شيخنا الكليني ره ، والشيخ الصفّار ره ، وابن محبوب ره، و شيخنا الصدوق ره، ثمّ جاء المتأخّرون نسبيًّا كـ شيخنا لمفيد، والسيد المرتضى، و شيخنا الطوسي، فتعاملوا مع هذه الأخبار تعاملًا نقديًّا تأويليًّا، يراعي أصول الكلام، ويصون مذهب أهل البيت عليهم السلام من الغلوّ والانحراف.

ومن هنا، فإنّ هذا البحث لا يروم مجرّد جمع الأخبار، بل يسعى إلى قراءة تطوّر الموقف الإمامي من أخبار الطينة والميثاق، وتتبع إشاراتها عند المتقدّمين، وفهم منهجهم في إيرادها، ثمّ الوقوف على كيفية تلقّي المتكلّمين لها، ووجوه الجمع بينها وبين مسلّمات العقيدة، في ضوء الهدي النبوي، وبيان الأئمّة من آل محمد عليهم السلام. وقد اعتمد البحث المنهج التحليلي النقدي التأصيلي، القائم على تحليل الدلالة، وموازنة الخبر بالأصل، وردّ المتشابه إلى المحكم، وانتظم البحث في مقدّمة، وتمهيد، وعدة مباحث، وخاتمة تضمّنت أبرز النتائج والتوصيات، ونسأل الله أن يوفّقنا لإصابة الحق، وأن يجعل هذا الجهد خالصًا لوجهه الكريم، ومقرّبًا إلى أوليائه، إنّه نعم المولى ونعم النصير.

الفصل الاول: المبحث الأول:

٢-١: تعريف الطينة لغةً:

قال ابن منظور ره : الطِّينة: الخِلْقة و الجِبِلَّة. يقال: فلان من الطِّينة الأُولى. و طانَهُ اللهُ على الخير و طامَهُ أَي جَبَله عليه، و هو يَطِينُه؛ قال: أَلا تلك نفْسٌ طِينَ فيها حَياؤُها. (ابن منظور، لسان العرب : ج١٣ / ٢٧٠).

اما تعريف الطينة اصطلاحًا: الطّينة: [في الانكليزية]Matter [في الفرنسية]Matiere بالكسر و سكون الياء هي من أسماء العلّة المادية . (كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهانوي: ج٢ / ١١٤٣).

٢-٢تعريف الميثاق لغةً:

فقد عرفه الزبيدي ره قال: المِيثاقُ، و المَوْثِقُ، كمَجْلِس: العَهْدُ صارت الوَاوُ ياءً

لانْكِسارِ ما قَبْلَها. قالَ اللهُ تَعالَى: وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ أَي: أَخَذَ العَهْدَ عليهم بأَنْ يُؤمِنوا بمُحمَّدٍ صلّى الله عليه و سلّم، و أَخْذُ العَهْدِ بمَعْنَى الاستِحْلافِ.(الزبيدي، تاج العروس : ج١٣ / ٤٧٢).

أما تعريف الميثاق اصطلاحاً، فقد عرفه الراغب الاصفهاني ره قال : الْمِيثَاقُ: عقد مؤكّد بيمين و عهد، قال: وَ إِذْ أَخَذَ اللهُ مِيثاقَ النَّبِيِّينَ [آل عمران/ ٨١]، وَ إِذْ أَخَذْنا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثاقَهُمْ [الأحزاب/ ٧]، وَ أَخَذْنا مِنْهُمْ مِيثاقاً غَلِيظاً [النساء/ ١٥٤] و الْمَوْثِقُ الاسم منه. (الراغب الاصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن، ص٨٥٣) .

المبحث الثاني:

٢-٢-١: الميثاق في القرآن الكريم وأثره في توجيه الأخبار الروائية

يمثّل مفهوم الميثاق الأساسَ القرآني الذي دارت حوله جملةٌ من الأخبار الواردة في المصادر الحديثية الأولى، ولا يمكن مقاربة أخبار الطينة والميثاق عند المتقدّمين دون ضبط هذا المفهوم قرآنيًا، وبيان حدوده الدلالية، وتمييز ما هو محكم قرآني عمّا هو متشابه روائي.

٢-٢-٢: أولًا: النص القرآني المؤسِّس لمفهوم الميثاق

ورد النصّ القرآني الصريح في الميثاق في قوله تعالى:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾ (سورة الأعراف ،الآية : ١٧٢)

وهذه الآية تمثّل المرتكز الأعلى في بحث الميثاق، ومنهج التعامل معها عند المتقدّمين ينعكس مباشرةً على طريقة تعاملهم مع الأخبار الواردة في هذا الباب.

إذ تتناول الآية (الميثاق) من بني آدم على الربوبيّة و هي من أدق الآيات القرآنية معنى، و أعجبها نظمًا.

ومعنى (الأخذ) في الآية المباركة مأخوذ من : أخذ الشيء من الشيء يوجب انفصال

المأخوذ من المأخوذ منه و استقلاله دونه بنحو من الأنحاء، و هو يختلف باختلاف العنايات المتعلقة بها و الاعتبارات المأخوذة فيها كأخذ اللقمة من الطعام و أخذ الجرعة من ماء القدح و هو نوع من الأخذ، و أخذ المال و الأثاث من زيد الغاصب أو الجواد أو البائع أو المعير و هو نوع آخر، أو أنواع مختلفة أخرى، و كأخذ العلم من العالم و أخذ الأهبة من المجلس و أخذ الحظ من لقاء الصديق و هو نوع و أخذ الولد من والده للتربية و هو نوع إلى غير ذلك.

فمجرد ذكر الأخذ من الشيء لا يوضح نوعه إلا ببيان زائد، و لذلك أضاف الله سبحانه إلى قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ» الدال على تفريقهم و تفصيل بعضهم من بعض، قوله: «مِنْ ظُهُورِهِمْ» ليدل على نوع الفصل و الأخذ، و هو أخذ بعض المادة منها بحيث لا تنقص المادة المأخوذ منها بحسب صورتها و لا تنقلب عن تمامها و استقلالها ثم تكميل الجزء المأخوذ شيئا تاما مستقلا من نوع المأخوذ منه فيؤخذ الولد من ظهر من يلده و يولده، و قد كان جزء ثم يجعل بعد الأخذ و الفصل إنسانا تاما مستقلا من والديه بعد ما كان جزء منهما.

ثم يؤخذ من ظهر هذا المأخوذ مأخوذ آخر و على هذه الوتيرة حتى يتم الأخذ و ينفصل كل جزء عما كان جزء منه، و يتفرق الأناسي و ينتشر الأفراد و قد استقل كل منهم عمن سواه و يكون لكل واحد منهم نفس مستقلة لها ما لها و عليها ما عليها، فهذا مفاد قوله: «وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ» و لو قال: أخذ ربك من بني آدم ذريتهم أو نشرهم و نحو ذلك بقي المعنى على إبهامه.(الطباطبائي، تفسير الميزان:ج٨/ ٣٠٦).

في ضوء كلام العلّامة الطباطبائي (ره)، يمكن استخلاص التحليل الدلالي لألفاظ الآية على النحو الآتي:

يدلّ لفظ «الأخذ» في الآية على معنى عامّ لا يتعيّن نوعه إلا بقرينة، إذ هو يفيد فصل المأخوذ عن المأخوذ منه مع نوع استقلال، ويختلف باختلاف العناية والسياق. وقد جاءت قرينة التعيين في قوله تعالى «مِنْ ظُهُورِهِمْ» لتبيّن أن الأخذ هنا ليس قلعًا ماديًا يوجب نقص الأصل، بل فصلٌ تكوينيٌّ تدريجيٌّ للذرية من أصلها مع بقاء الأصل تامًّا. فدلالة «من

ظهورهم» تشير إلى منشأ التناسل والامتداد الطبيعي للنوع الإنساني. أما «ذُرِّيَّتَهُمْ» فتفيد التتابع والانتشار جيلاً بعد جيل، لا الأخذ الدفعيّ الجمعيّ. وبهذا يتكشّف أن الآية تصوّر نشأة الأفراد استقلالًا بعد كونهم أجزاءً بالقوة، لكل نفسٍ خصوصيتها ومسؤوليتها.

٢-٢-٣:ثانيًا: التحليل الدلالي لألفاظ الآية بشكل عام:

١- دلالة (أَخَذَ)

الأخذ في الاستعمال القرآني لا ينحصر في الفعل الحسّي، بل يُستعمل أيضًا في مقام إقامة الحجة وإلزام المكلَّف، كما في موارد الأخذ بالعهد والميثاق. وعليه، فإن حمل «الأخذ» على صورة مادّية محسوسة يفتقر إلى قرينة قطعية، لا سيما مع تعلّق الآية بمقام الاحتجاج يوم القيامة.

٢- دلالة (أَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ)

الإشهاد هنا ذو طبيعة معرفية؛ إذ يتعلّق باعتراف النفس بربوبية الله تعالى، وهو ما ينسجم مع أصل الفطرة، ولا يستلزم بالضرورة مشهدًا خارجيًا مستقلًا عن وعي الإنسان اللاحق.

٣- الغاية من الميثاق

صرّحت الآية بغاية الإشهاد، وهي قطع العذر عن الإنسان يوم القيامة:

﴿أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ﴾

وهذا التعليل يدلّ بوضوح على أن الميثاق وسيلة لإقامة الحجة، لا لتقرير مصير سابق على الاختيار.

٢-٢-٤:ثالثًا: الميثاق وأصل العدل الإلهي

يُعدّ أصل العدل الإلهي من الأصول القطعية في العقيدة الإماميّة، ويقضي هذا الأصل باستحالة مؤاخذة الإنسان على ما لا علم له به، أو ما لا قدرة له على اختياره. ومن هنا، فإن أي فهم للميثاق يؤدي إلى: (الجبر أو سلب الاختيار أو تقرير مصير سابق للتكليف)

إذ يكون فهمًا غير منسجم مع المحكم القرآني. وعليه، فإن الميثاق – في ضوء الآية – لا يمكن أن يُفهم بوصفه تعيينًا جبريًا للإنسان، بل هو تأسيس معرفي سابق للتكليف، تتفرّع عنه المسؤولية، لا يُلغِيها.

٢-٢-٥: رابعًا: أثر الفهم القرآني للميثاق في توجيه الأخبار الروائية

إن ضبط مفهوم الميثاق قرآنيًا يفرض ضابطًا منهجيًا صارمًا في التعامل مع الأخبار الواردة في هذا الباب عند المتقدّمين، ويتمثّل هذا الضابط في أن كل خبرٍ يُفهم منه نفي الاختيار أو الإخلال بالعدل، لا بد من ردّه إلى هذا الأصل القرآني، إمّا بالتقييد أو بالتأويل أو بحمله على غير ظاهره.

ومن هنا تتضح أهمية دراسة أخبار الميثاق والطينة عند المتقدّمين دراسةً تحليلية نقدية، لا دراسة تجميعية، وهو ما سيمثّل محور المباحث اللاحقة.

٢-٣: الطينة في التصور القرآني وأثرها في توجيه الأخبار الروائية

يرتبط مفهوم الطينة في القرآن الكريم ارتباطًا وثيقًا بقضية الخلق الأول وأصل الإنسان، وقد تكرر ذكرها في مواضع متعددة تؤكد وحدة الأصل الإنساني وتدرّج الخلق، من غير أن يُستفاد منها أي تمايز عقدي أو تفاضل جوهري بين البشر. فقد نصّ القرآن الكريم على أن مادة خلق الإنسان هي الطين، كما في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (سورة المؤمنون، الآية : ١٢).

وقوله سبحانه: ﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ﴾ (سورة ص، الآية: ٧١).

وقوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن طِينٍ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ٢).

إذ تكشف هذه الآيات بمجموعها أن الطينة القرآنية تمثل بيانًا لأصل الخلقة ووحدة المنشأ، لا مدخلًا للتفريق الجوهري بين الناس، إذ يعقب ذكر الخلق من الطين غالبًا الحديث عن النفخ من الروح الإلهية، والتكليف، والاستخلاف، كما في قوله تعالى:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (سورة الحجر، الآية: ٢٩؛

سورة ص، الآية: ٧٢)، مما يدل على أن الكرامة والتكليف مناطهما الروح والعقل والعمل، لا مادة الخلق الأولى.

وعند الانتقال إلى الأخبار الروائية، ولا سيّما في التراث الإمامي المبكر، يظهر مفهوم الطينة بوصفه عنصرًا تفسيريًا روائيًا استُخدم لبيان تفاوت القابليات والاستعدادات، حيث وردت أخبار تتحدث عن خلق المؤمن من طينة مخصوصة، والكافر من طينة أخرى، أو عن امتزاج الطينتين. غير أن هذه الأخبار، بظاهرها الأولي، تثير إشكالات عقدية تمسّ أصل العدل الإلهي، ومبدأ الاختيار، وإمكان توجيه التكليف، وهو ما استدعى تعاملًا نقديًا مبكرًا معها.

ومن هنا، فإن الجمع بين الدلالة القرآنية للطينة وبين الأخبار الروائية يفضي إلى أن الطينة، في أحسن محاملها، لا تُراد بها الحتمية التكوينيّة ولا الجبر الوجودي، بل تُحمل على معنى الاستعداد والقابلية الأولية، التي لا تلغي دور الإرادة الإنسانيّة، ولا ترفع مسؤوليّة الفعل والاختيار. ويؤيد هذا الفهم ما قرره القرآن من أن الهداية والضلال مرتبطان بالسعي والعمل، كما في قوله تعالى:

﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ (سورة الإنسان ، الآية : ٣).

وقوله: ﴿ وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾ (سورة النجم، الآية: ٣٩).

وعليه، فإن الطينة في الأخبار الروائية لا تؤسس أصلًا عقديًا مستقلًا، ولا تُنشئ تمايزًا وجوديًا حتميًا، بل تؤدي وظيفة تفسيرية تُقرأ في ضوء الأصول القرآنية القطعية، وبالاقتران مع مفهوم الميثاق الذي يعبّر عن قيام الحجة الإلهية على الإنسان. وبهذا التكامل بين الطينة بوصفها استعدادًا، والميثاق بوصفه التزامًا، ينتفي التعارض، ويستقيم الفهم العقدي وفق مبادئ الإماميّة في العدل والاختيار.

المبحث الثالث:

مدخل: أخبار الطينة والميثاق عند المتقدّمين (القرنان الثالث والرابع الهجريان)

٢-٣-١: أولاً: الإطار الزمني والمنهجي

يمثّل القرنان الثالث والرابع الهجريان مرحلة التدوين التأسيسي في التراث الإمامي، حيث انتقلت المرويات العقدية من طور التداول الشفهي والجزئي إلى مرحلة الجمع والتصنيف. وفي هذا السياق برزت أخبار الميثاق الأوّل، وعالم الذرّ، والطينة بوصفها مكوّنات غيبية تفسّر سرّ الإيمان والكفر، وسبق الاصطفاء، وعلاقة العبد بربه قبل عالم التكليف.

غير أنّ هذه الأخبار لم تُقدَّم في هذه المرحلة ضمن نظرية كلامية متكاملة، بل وردت مبعثرة في أبواب التوحيد، والإيمان والكفر، والحجة، والبداء، وهو ما أفضى إلى إشكالات فهم وتأويل ستشكّل لاحقاً محور الجدل الكلامي الإمامي.

٣-٣-٢: ثانياً: أعلام المتقدمين وحضور أخبار الطينة والميثاق في مصنّفاتهم

١- محمد بن يعقوب الكليني ره (ت ٣٢٩ هـ)

يُعدّ الكليني أقدم من وصلنا تراثه الروائي كاملاً، وقد أدرج أخبار الطينة والميثاق في الكافي ضمن سياقها الروائي الطبيعي، دون تعليق كلامي أو محاولة تأويلية.

منهجه جامع ناقل، لا يهدف إلى حلّ التعارضات الظاهرية، بل يقدّم النص كما تلقّاه، تاركاً مهمة الجمع والفهم للأجيال اللاحقة.

الإشكالية عنده: أن ظواهر بعض الأخبار قد تُفهم على نحوٍ يوحي بالجبر أو التعيين القبلي للمصير، دون أن يبيّن وجه انسجامها مع العدل الإلهي والتكليف.(راجع: الكافي، ط١، ١٤٠٧ هـ، ج٢/ ص ١٣-١٦كتاب التوحيد، باب: الميثاق و ص ٣٩٠-٣٩٤كتاب الإيمان والكفر، باب: طينة المؤمن والكافر).

٢- محمد بن الحسن الصفّار القمي (ت ٢٩٠ هـ)

في كتاب بصائر الدرجات تتكثّف أخبار الطينة والسبق النوري والتمييز الوجودي لأهل البيت ع وشيعتهم. الكتاب يمثّل أقدم خزان روائي لهذا الباب، وهو نصّي صرف، خالٍ من التعليق أو التحليل.

الإشكالية عنده: غلبة البعد الغيبي والاصطفائي، مع غياب البيان الكلامي الذي يحدّد هل الطينة علّة موجِبة أم استعداد قابل للفعل . (راجع: بصائر الدرجات في فضائل آل محمد (ع)، ط، ١، ١٤٠٤ هـ، ج١/ ص ٤١-٤٤ باب: في أن الله خلق المؤمن من طينة مخصوصة ، وج١/ ٦٣-٦٦ باب: في طينة الأئمة وشيعتهم).

٣- الحسن بن محبوب السرّاد (ت ٢٢٤ هـ)

وهو من أصحاب الإجماع، وقد نُقلت عنه روايات ذات دلالة عالية في التفريق بين المؤمن والكافر منذ البدء. رواياته موجزة، عميقة الإيحاء، وتشكّل نواة مبكّرة لفكرة الطينة.

الإشكالية: أن اختصار النصوص وعلوّ رمزيتها يجعلانها عُرضة للتأويل المتباين. (راجع : الكافي، ط١، ١٤١٨هـ ،ح٢/ ص ٣٨٩-٣٩٢ كتاب الإيمان والكفر، و باب طينة المؤمن والكافر)

٤- محمد بن إبراهيم النعماني (ت نحو ٣٦٠ هـ)

في كتاب الغيبة تظهر إشارات إلى الميثاق وعالم الذرّ من خلال ربطها بمسألة الاصطفاء الإلهي والتمهيد الغيبي للظهور. حضوره هنا وظيفي لا تنظيري.

الإشكالية: ربط الميثاق بالاصطفاء دون تفصيلٍ دقيق لموقع الاختيار البشري. (راجع: كتاب الغيبة، ط١، ١٤١٧ هـ، ص ٢٨-٣٠ (بداية الكتاب، باب: ذكر العلة التي من أجلها غاب القائم) ص ٤٥-٤٧ (باب ما ورد في الامتحان والتمييز قبل الظهور).

٥- محمد بن علي بن بابويه القمي – الشيخ الصدوق (ت ٣٨١ هـ)

يمثّل الشيخ الصدوق ره نقلة نوعية؛ إذ جمع بين الرواية ومحاولة الدفاع العقدي.

في كتبه كـ التوحيد وعلل الشرائع ومعاني الأخبار اذ سعى إلى صرف الفهم الجبري، مبيّناً أن أخبار الطينة تُحمل على الاستعداد والقابلية، أو على العلم الإلهي السابق، لا على الإلزام القهري.

الإشكالية المركزية عنده: تحقيق التوازن بين النصوص الغيبية وبين أصل العدل الإلهي. (راجع: كتاب التوحيد، ط٢، ١٣٩٨هـ، باب ٥٨: الإرادة والمشيئة ص ٣٩٥–٣٩٨، و باب ٦١: العدل ص ٤١٤–٤١٧، و علل الشرائع، ط١٣٨٥، ج ٢، ص ٣٨١–٣٨٣، و ج ٢، ص ٣٨٩).

٣-٣-٤ :ثالثاً: الإشكالات العقدية الجامعة في مرحلة المتقدّمين

من خلال تتبّع نتاج هذه المرحلة، يمكن ردّ الإشكالات إلى ثلاثة محاور كبرى: الجبر والاختيار. العدل الإلهي كيف يُحاسَب الإنسان إذا كان تمييزه سابقاً على عالم التكليف؟ الجمع بين النصوص التعارض الظاهري بين أخبار الطينة والميثاق، وبين آيات الامتحان والتكليف والجزاء. ولهذا كلّه، لم يُنشئ المتقدّمون نظرية كلامية مكتملة، بل اكتفوا بنقل الأخبار أو الدفاع الجزئي عنها.

إذ يمكن القول إن أخبار الطينة والميثاق عند المتقدّمين تمثّل مرحلة النص المؤسِّس الخام بينما كانت مهمة التنظير، ورفع التعارض، وصياغة الفهم العقدي المنسجم من نصيب المدرسة الكلامية الإماميّة في القرن الرابع وما بعده، ولا سيّما عند الشيخ المفيد، والسيد المرتضى، والشيخ الطوسي.

المبحث الرابع:

٣-٤-١:أعلام القرن الرابع والخامس وموقفهم من أخبار الطينة والميثاق

١- الشيخ المفيد محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ).

يمثّل الشيخ المفيد ره نقطة التحوّل المفصلية في التعامل مع أخبار الطينة والميثاق؛ إذ انتقل بها من حيّز الرواية إلى حيّز التحليل الكلامي النقدي.

موقفه المنهجي: لا ينكر أصل ورود الأخبار لكنه يرفض الفهم الحرفي الذي يؤدّي إلى الجبر أو إبطال التكليف لذا هو يصرّح بأن الإيمان والكفر لا يُحسمان بالطينة وحدها وأن العدل الإلهي يقتضي ربط الجزاء بالفعل الاختياري وقد قرّر في كتبه الكلامية أن ما ورد في هذا الباب إمّا ان يكون مؤوَّل أو محمول على معنى الاستعداد والتمييز بالعلم الإلهي السابق لا على الإيجاب القهري. (راجع: تصحيح اعتقادات الإماميّة، ط ١، ١٤١٤هـ ، ص ٦٢-٦٦، و أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، ط٢، ١٤١٣هـ ، ص ٣٦-٣٨ (باب القول في أفعال العباد)، و ص ٤١-٤٢ (نفي الجبر وإثبات العدل).

٢- الشريف المرتضى علي بن الحسين الموسوي (ت ٤٣٦ هـ).

يُعدّ السيد المرتضى أدقّ من نظّر لمسألة الطينة والميثاق من زاوية عقلية، وإن لم يفرد لها باباً خاصاً.

موقفهُ: يعترف بورود الأخبار من حيث الجملة، و يرفض الاحتجاج بها في أصول الاعتقاد إذا خالفت القطع العقلي أو ناقضت العدل والتكليف، و يؤكّد أن سبق العلم الإلهي لا يستلزم سبق الجبر ولا يصحّ حمل الطينة على العلّية التامّة، و تعاطيه مع هذه الأخبار يأتي غالباً في سياق الرد على المجبرة أو في باب أفعال العباد والله العالم. (راجع: الذخيرة في علم الكلام، ط١٤١١،١هـ، ص ٢٨٤-٢٨٩ ، و الشافي في الإمامة، ط ١، ١٣٩٠هـ ، ج ١، ص ١٦٢-١٦٥).

٣- الشيخ أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)

يعتبر الشيخ الطوسي ره هو الخاتم المنهجي للمدرسة الإماميّة الكلاسيكية، وقد جمع بين الرواية والكلام والأصول ، و موقفه: يقرّ بوجود أخبار الطينة والميثاق في كتب الحديث فهو لا يعتمدها على ظاهرها في بناء العقيدة، وانما يؤكّد في كتبه الكلاميّة أن التكليف أصل والجزاء فرع الاختيار ويتعامل مع هذه الأخبار على أحد وجهين: التأويل بما ينسجم مع العدل أو ردّ علم حقيقتها إلى المعصوم مع نفي الجبر. (راجع: الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، ط١، ١٤٠٩هـ، ص ٩٢-٩٦ (باب العدل)، و ص ١٠١-١٠٣ (باب التكليف)،

الفصل الثاني: المبحث الاول

حصر اهم أخبار الطينة والميثاق في كتب المتقدّمين

٤-١أولًا: أخبار الطينة في كتب المتقدّمين

١- روايات الطينة في بصائر الدرجات في فضائل آل محمد ع - الصفار(ت٢٩٠هـ).

٢-الكافي – الكليني (ت ٣٢٩هـ)

أ-باب فيه خلق أبدان الأئمة ع و قلوبهم و أبدان الشيعة و قلوبهم لئلا يدخل الناس الغلو في عجائب علمهم :

١- إذ روى الصفار ره بإسناده عن مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحَسَنِ عَنِ النَّضْرِ بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ عَبْدِ الْغَفَّارِ الْجَازِي عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ع قَالَ:(إِنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ خَلَقَ الْمُؤْمِنَ مِنْ طِينَةِ الْجَنَّةِ وَ خَلَقَ الْكَافِرَ مِنْ طِينَةِ النَّارِ وَ قَالَ إِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بِعَبْدٍ خَيْراً طَيَّبَ رُوحَهُ وَ جَسَدَهُ فَلَا يَسْمَعُ شَيْئاً مِنَ الْخَيْرِ إِلَّا عَرَفَهُ وَ لَا يَسْمَعُ شَيْئاً مِنَ الْمُنْكَرِ إِلَّا أَنْكَرَهُ قَالَ وَ سَمِعْتُهُ يَقُولُ الطِّينَاتُ ثَلَاثٌ طِينَةُ الْأَنْبِيَاءِ وَ الْمُؤْمِنُ مِنْ تِلْكَ الطِّينَةِ إِلَّا أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ هُمْ مِنْ صَفْوَتِهَا هُمُ الْأَصْلُ وَ لَهُمْ فَضْلُهُمْ وَ الْمُؤْمِنُونَ الْفَرْعُ مِنْ طِينٍ لازِبٍ كَذَلِكَ لَا يُفَرِّقُ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ بَيْنَهُمْ وَ بَيْنَ شِيعَتِهِمْ وَ قَالَ طِينَةُ النَّاصِبِ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ * وَ أَمَّا الْمُسْتَضْعَفُونَ فَ مِنْ تُرابٍ* لَا يَتَحَوَّلُ مُؤْمِنٌ عَنْ إِيمَانِهِ وَ لَا نَاصِبٌ عَنْ نَصْبِهِ وَ للهِ الْمَشِيئَةُ فِيهِمْ. (الصفار،ط١،

١٤٠٤هـ بصائر الدرجات :ج١/ ١٤)

وبنفس الاسناد ذكرها الكليني ره في الكافي (باب روايات خلق المؤمن والكافر من طينة : ج٢/ ٢).

بيان بعض ألفاظ الرواية:

قال الفيض الكاشاني (ت ١٠٩١ هـ) فى بيان تفسير الرواية: صدر الحديث مصدق لما قررنا في الخبر السابق و كذا قوله ع: ألا إن الأنبياء من صفوتها هم الأصل و لهم فضلهم و المؤمنون الفرع من طين لازب و ذلك، لأن الجبروت صفوة الملكوت و أصله و الملكوت فرع الجبروت و اللازب اللازم للشيء و اللاصق به، و إنما كانت طينتهم لازبة للزومها لطينة أئمتهم و لصوقها بها لخلطها بها و تركبها من العالمين جميعا كما عرفت أ لا ترى إلى شوقهم إلى أئمتهم و حنينهم إليهم و كما أن الأمر كذلك كذلك لا يفرق الله بين أئمتهم و بينهم و الحمأ الطين الأسود و المسنون المنتن و هو كناية عن باطن الدنيا و حقيقة تلك العجوز الشوهاء و أما خلق المستضعفين من التراب أعني ما له قبول الأشكال المختلفة و حفظها فذلك لعدم لزومهم لطريقة أهل الإيمان و لا لطريقة أهل الكفر و عدم تقيدهم بعقيدة لا حقّ و لا باطل ليس لهم نور الملكوت و لا ظلمة باطن الملك بل لهم قبول كل من الأمرين بخلاف الآخرين، فإنهما لا يتحولان عما خلقوا له . و أما قوله: و لله المشية فيهم فهو رد لتوهم الإيجاب في فعله سبحانه و فيه إشارة إلى قوله عز و جل:(وَ لَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ).(الكاشاني،ط١ ، ١٤٠٦ هـ، الوافي :ج٤/ ٢٨).

إذ تفيد هذه الرواية أن «الطينة» ليست مادةً حسّيةً بالمعنى الفيزيائي، بل تعبيرٌ رمزيٌّ عن الاستعداد الوجودي والقابلية الباطنية للإنسان في سلّم الهداية والضلال. فخلق المؤمن من طينة الجنة يعني توجّه فطرته إلى عالم النور والملكوت، بحيث تنسجم روحه مع الحق وتأنس به، بينما يدل خلق الكافر أو الناصب من طينة النار أو الحمأ المسنون على انشداد باطنه إلى عالم الظلمة والشهوة. وأما الأنبياء والأئمة ع فهم صفوة تلك الطينة وأصلها، لكونهم المظهر الأكمل للفيض الإلهي، والمؤمنون فروعٌ عنهم لاتصالهم الوجودي والهدايتي بهم.

وخلق المستضعفين من التراب يشير إلى حياد القابلية وعدم التعيّن العقدي، مع بقاء المشيئة الإلهية حاكمة في مصائر الجميع، نفيًا للجبر وإثباتًا للاختيار ضمن سنن الهداية الإلهية.

٢- وروى الكليني ره بإسناده عن أَبِي إِسْمَاعِيل الصَّيْقَلِ الرَّازِيّ، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ع، قَالَ:(إِنَّ فِي الْجَنَّةِ لَشَجَرَةً تُسَمَّى الْمُزْنَ فَإِذَا أَرَادَ اللهُ أَنْ يَخْلُقَ مُؤْمِناً أَقْطَرَ مِنْهَا قَطْرَةً فَلَا تُصِيبُ بَقْلَةً وَ لَا ثَمَرَةً أَكَلَ مِنْهَا مُؤْمِنٌ أَوْ كَافِرٌ إِلَّا أَخْرَجَ اللهُ عَزَّ وَ جَلَّ مِنْ صُلْبِهِ مُؤْمِناً).(الكليني ،ط١، ١٤٠٧ هـ، الكافي :ج٢ / ١٤،)

بيان بعض ألفاظ الرواية:

قيل: تسمية الشجرة بالمزن على جهة التشبيه به كما ان المزن يتقاطر المطر وهي تتقاطر أيضا سمّيت به لمشابهتها له في التقاطر .

و هذا الحديث كما يناسب ما قيل :أن المراد بالطينة الأصول الممتزجات المنقلة في أطوار الخلقة كالنطفة و ما قبلها من موادها مثل النبات و الغذاء و ما بعدها من العلقة و المضغة و المزاج الإنساني القابل للنفس الناطقة المدبرة، كذلك يناسب ما ذكر من أن المراد بالطينة طينة الجنة، لأن طينة الجنّة اختمارها و تربيتها بهذه القطرة كما أنّه بماء العذب الفرات المذكور سابقا، و بالجملة خلقه من طينة الجنّة و مزجها بماء الفرات أولا و تربيتها بماء المزن ثانيا لطف منه تعالى بالنسبة إلى المؤمن ليحصل له الوصول إلى أعلى مراتب القرب.(المجلسي،ط٢ ، ١٤٠٤ هـ ، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول : ج٧ / ٦٦)

ونقل بعض محققي من أهل التأويل: الجنّة تشمل جنان الجبروت و الملكوت، و المزن الحساب و هو أيضا يعمّ سحاب ماء الرحمة و الجود و الكرم، و سحاب ماء المطر و الخصب و الديم، و كما أنّ لكلّ قطرة من ماء المطر صورة و سحابا انفصلت منه في عالم الملك كذلك له صورة و سحاب انفصلت منه في عالمي الملكوت و الجبروت، و كما أن البقلة و الثمرة تتربى بصورتها الملكوتية، وكذلك تتربى بصورتيها الملكوتية و الجبروتية المخلوقتين من ذكر الله تعالى اللتين من شجرة المزن الجناني و كما أنهما تتربيان بها قبل الأكل كذلك تتربيان بها بعد الأكل في بدن الآكل، فإنها ما لم تستحل إلى صورة العضو فهي بعد في التربية، فالإنسان

إذا أكل بقلة أو ثمرة ذكر الله عز و جل عندها و شكر الله عليها، و صرف قوتها في طاعة الله سُبحانه و الأفكار الإيمانية و الخيالات الروحانية فقد تربت تلك البقلة أو الثمرة في جسده بماء المزن الجناني، فإذا فضلت من مادتها فضلة مَنَويةٌ فهي من شجرة ماء المزن التي أصلها في الجنّة و إذا أكلها على غفلة من الله سُبحانه، و لم يشكر الله عليها و صرف قوتها في معصية الله تعالى و الأفكار المموهة الدنيوية و الخيالات الشهوانية، فقد تربت تلك البقلة أو الثمرة في جسده بماء آخر غير صالح لخلق المؤمن إلا أن يكون قد تحقق تربيتها بماء المزن الجناني قبل الأكل، و أما مأكولة الكافر التي يخلق منها المؤمن فإنّما يتحقق تربيتها بذلك الماء قبل أكله لها غالبا، و لذكر الله عند زرعها أو غرسها مدخل في تلك التربية، و كذلك لحلّ ثمنها و تقوى زارعها أو غارسها إلى غير ذلك من الأسباب.(المجلسي، ط٢ ، ١٤٠٤ هـ ، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول : ج٧ / ٦٦).

والملاحظ ان رواية شجرة المزن في الجنة تحمل دلالة على الأصل الروحي والوجودي للخلق، حيث تُشير القطرة المتساقطة من الشجرة إلى الخلق المستمدّ من منابع النور الإلهي، وتكوّن الإنسان – خصوصًا المؤمن – بصفة من التهيئة الروحية قبل الإتمام المادي. فالطينة التي يُخلق منها المؤمن ليست مجرد مادة حسّية، بل هي أصل قابل للتربية والتشكيل بالفيض الإلهي، بحيث تمزج فيها عوامل الملكوت والجبروت استعدادًا لاستقبال النفس الناطقة المدبرة. ومن هنا يظهر الحكمة الإلهية في التمييز بين المؤمن والكافر، فالماء والقطرات التي تُربّى بها مادة الإنسان تتهيأ لتصبح جسمًا وروحًا متوافقين مع القرب الإلهي لدى المؤمن بينما قد تصادف الكافر بمصادر غير متكاملة الروحانية كما تبرز الرواية مفهوم المسؤولية الإنسانية والنية، إذ أن شكر الله على الغذاء واستثماره في الطاعة يعزّز التربية الإيمانية، ويصبح الغذاء جزءًا من تكوين النفس المضيئة، بينما الغفلة والمعصية تحول المادة إلى طينة غير صالحة للخلق الإيماني. وبهذا توضح الرواية أن أصل الخلق ومراحله مرتبطان ارتباطًا وثيقًا بالعالمين الغيبي والمادي، وبالنية والعمل البشري في تقويم النفس.

٣- وروى الكليني ره بإسناده عن عَبْدُ اللهِ بْن كَيْسَان، عَنْ أَبِي عَبْدِ اللهِ ع، قَالَ:(قُلْتُ لَهُ : جُعِلْتُ فِدَاكَ أَنَا مَوْلَاكَ عَبْدُ اللهِ بْنُ كَيْسَانَ، قَالَ: أَمَّا النَّسَبُ فَأَعْرِفُهُ وَ أَمَّا أَنْتَ فَلَسْتُ أَعْرِفُكَ؟ قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنِّي وُلِدْتُ بِالْجَبَلِ وَ نَشَأْتُ فِي أَرْضِ فَارِسَ وَ إِنَّنِي أُخَالِطُ النَّاسَ فِي التِّجَارَاتِ وَ غَيْرِ ذَلِكَ فَأُخَالِطُ الرَّجُلَ فَأَرَى لَهُ حُسْنَ السَّمْتِ، وَ حُسْنَ الْخُلُقِ وَ كَثْرَةَ أَمَانَةٍ ثُمَّ أُفَتِّشُهُ فَأَتَبَيَّنُهُ عَنْ عَدَاوَتِكُمْ وَ أُخَالِطُ الرَّجُلَ فَأَرَى مِنْهُ سُوءَ الْخُلُقِ وَ قِلَّةَ أَمَانَةٍ وَ زَعَارَةً ثُمَّ أُفَتِّشُهُ فَأَتَبَيَّنُهُ عَنْ وَلَايَتِكُمْ، فَكَيْفَ يَكُونُ ذَلِكَ؟ فَقَالَ لِي: أَ مَا عَلِمْتَ يَا ابْنَ كَيْسَانَ أَنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ أَخَذَ طِينَةً مِنَ الْجَنَّةِ وَ طِينَةً مِنَ النَّارِ فَخَلَطَهُمَا جَمِيعاً ثُمَّ نَزَعَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ وَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ فَمَا رَأَيْتَ مِنْ أُولَئِكَ مِنَ الْأَمَانَةِ وَ حُسْنِ الْخُلُقِ وَ حُسْنِ السَّمْتِ فَمِمَّا مَسَّتْهُمْ مِنْ طِينَةِ الْجَنَّةِ وَ هُمْ يَعُودُونَ إِلَى مَا خُلِقُوا مِنْهُ وَ مَا رَأَيْتَ مِنْ هَؤُلَاءِ مِنْ قِلَّةِ الْأَمَانَةِ وَ سُوءِ الْخُلُقِ وَ الزَّعَارَةِ،فَمِمَّا مَسَّتْهُمْ مِنْ طِينَةِ النَّارِ وَ هُمْ يَعُودُونَ إِلَى مَا خُلِقُوا مِنْهُ).(الكليني ،ط١، ١٤٠٧ هـ، الكافي :ج٢ / ٤)

بيان بعض ألفاظ الرواية:

قيل قوله ع:(فَخَلَطَهُمَا جَمِيعاً)، أي في صلب آدم إلى أن يخرجوا من أصلاب أولاده، و هو المراد بقوله: (ثم نزع هذه من هذه إذ يخرج المؤمن من صلب الكافر، و الكافر من صلب المؤمن)، و حمل الخلط على الخلطة في عالم الأجساد و اكتساب بعضهم الأخلاق من بعض .

و قيل: (ثُمَّ نَزَعَ هَذِهِ مِنْ هَذِهِ) ، معناه انّه نزع طينة الجنّة من طينة النار، و طينة النار من طينة الجنّة بعد ما مست إحداهما الأخرى، ثمّ خلق أهل الجنّة من طينة الجنّة، و [خلق] أهل النار من طينة النار، و أولئك إشارة إلى الأعداء و هؤلاء إلى الأولياء، و ما خلقوا منه في الأول طينة النار و في الثاني طينة الجنّة. (المجلسي، ط٢ ، ١٤٠٤ هـ ، مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول : ج٧ / ٩).

وتحمل هذه الرواية إشارات عميقة إلى الأساس الفطري للخلق الإنساني وامتداد أثر الطينة في النفس والخلقة. فالحديث يبيّن أن الله عز وجل أخذ من طينة الجنة وطينة النار

وخلطهما في صلب آدم، بحيث تتداخل الخصال الإيجابية والسلبية في الإنسان الواحد قبل خروج الذرية، ثم نزع كل طينة إلى أصلها، فيُخلق المؤمن من طينة الجنة والخالص من الفساد، والكافر من طينة النار والخالص من الطيبة في مقابلها. ويشير هذا إلى أن الإنسان يحمل في نفسه قابلية الخير والشر معًا، وأن الصفات الظاهرة من أمانة وحسن خلق أو سوء خلق وفساد مستمدة من هذا الامتزاج، لكنها تعود إلى أصلها النهائي عند التكوين الكامل للفرد كما يوضح الحديث أن الخلاص الروحي والتربوي لا يتحقق إلا بالارتباط بالحق الإلهي واتباع الطريق المستقيم، فالإيمان والولاء الإلهي يرفع النفس عن تأثير طينة النار بينما الغفلة والانحراف يجعل النفس تعود إلى طبيعتها الأصلية من الشر والفساد، كما ينعكس ذلك على الخصال الأخلاقية والسلوكيات الظاهرة.

المبحث الثاني:

٤-٢-١: أخبار الميثاق في كتب المتقدّمين

فقد وردت بعض أخبار الميثاق في كتاب العياشي ره (ت ٣٢٠ هـ) تفسير العياشي (تفسير سورة الاعراف الاية:١٧٢) :ج٢ / ٣٩ ، وكتاب الكافي (بَابٌ آخَرُ مِنْهُ وَ فِيهِ زِيَادَةُ وُقُوعِ التَّكْلِيفِ الْأَوَّلِ):ج٢/ ٧).

1- إذ روي فيهما : روى مُحَمَّد بْن أُذَيْنَة، عَنْ زُرَارَةَ ،أَنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا جَعْفَرٍ، عَنْ قَوْلِهِ عَزَّ وَ جَلَّ:﴿ وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى﴾ [سورة الاعراف، الآية ١٧١]، إِلَى آخِرِ الْآيَةِ فَقَالَ وَ أَبُوهُ يَسْمَعُ ع:(حَدَّثَنِي أَبِي أَنَّ اللهَ عَزَّ وَ جَلَّ قَدْ قَبَضَ قَبْضَةً مِنْ تُرَابِ التُّرْبَةِ الَّتِي خَلَقَ اللهُ مِنْهَا آدَمَ ع فَصَبَّ عَلَيْهَا الْمَاءَ الْعَذْبَ الْفُرَاتَ ثُمَّ تَرَكَهَا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً ثُمَّ صَبَّ عَلَيْهَا الْمَاءَ الْمِلْحَ الْأُجَاجَ فَتَرَكَهَا أَرْبَعِينَ صَبَاحاً فَلَمَّا اخْتَمَرَتِ الطِّينَةُ أَخَذَهَا فَعَرَكَهَا عَرْكاً شَدِيداً فَخَرَجُوا كَالذَّرِّ مِنْ يَمِينِهِ وَ شِمَالِهِ وَ أَمَرَهُمْ جَمِيعاً أَنْ يَقَعُوا فِي النَّارِ فَدَخَلَ أَصْحَابُ الْيَمِينِ فَصَارَتْ عَلَيْهِمْ بَرْداً وَ سَلَاماً وَ أَبَى أَصْحَابُ الشِّمَالِ أَنْ يَدْخُلُوهَا ع .

بيان بعض ألفاظ الرواية:

قال البيضاوي، معنى ﴿ وَ إِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ﴾ [سورة الاعراف، الآية ١٧١]،أي أخرج من أصلابهم نسلهم على ما يتوالدون قرنا بعد قرن و{مِنْ ظُهُورِهِمْ}، بدل {مِنْ بَنِي آدَمَ}، بدل البعض.

و قرأ نافع، و أبو عمرو، و ابن عامر، و يعقوب «ذرياتهم». {وَ أَشْهَدَهُمْ عَلى أَنْفُسِهِمْ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ}، أي نصب لهم دلائل ربوبيته و ركب في عقولهم ما يدعوهم إلى الإقرار بها حتى صاروا بمنزلة من قيل[لهم]:{أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى}، فنزل تمكينهم من العلم بها و تمكنهم منه منزلة الإشهاد و الاعتراف على طريقة التمثيل و يدل عليه قوله:{ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ}، أي كراهة أن تقولوا{ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ}، لم نتنبه عليه بدليل.

{أَوْ تَقُولُوا}، عطف على {أَنْ تَقُولُوا إِنَّما أَشْرَكَ آباؤُنا مِنْ قَبْلُ وَ كُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ}، فاقتدينا بهم، لأنّ التقليد عند قيام الدليل و التمكن من العلم به لا يصلح عذرا.

{أَ فَتُهْلِكُنا بِما فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ}، يعني آباءهم المبطلين بتأسيس الشرك.

و قيل: لما خلق الله آدم أخرج من ذريته ذرية كالذر، و أحياهم و جعل لهم العقل و النطق و ألهمهم ذلك لحديث رواه عمر. (البيضاوي،ط١، ١٤١٨ هـ، انوار التنزيل، ج٣/ ٤١، المجلسي،ط٣، ١٤٠٣ هـ، بحار الانوار: ج٦٤ / ١١٢)

وقوله ع:(من تراب التربة)، هذا من قبيل إضافة الجزء إلى الكل.

و قوله:(من يمينه و شماله)، الضميران راجعان إلى الملك المأمور بهذا الأمر كجبرئيل أو العرش أو إلى التراب فاستعار اليمين للجهة التي فيها اليمن و البركة، و الشمال للأخرى أو اليمين لصفة الرحمانيّة و الشمال لصفة القهارية فالضميران راجعان إلى الله تعالى كما في الدعاء، و الخير في يديك، أي كلما يصدر منك من خير أو شر أو نفع أو ضر فهو خير و

مشتمل على المصالح الجليلة (المجلسي،ط٣، ١٤٠٣ هـ، بحار الانوار: ج٦٤ / ١١٢).

ويتضح مما تقدم إنّ أخبار الميثاق والطينة الواردة في هذه الرواية تُحمل على التحقيق على جهة التمثيل والكشف عن حقائق الاستعدادات الفطرية، لا على ظاهر التشخيص الحسّي المحض؛ إذ المقصود بيان سبق علم الله تعالى بالعباد، واختلاف قابلياتهم في القبول والإنكار. فقوله عليه السلام: (فخرجوا كالذر) كناية عن غاية الكثرة والدقة، لا عن خروجٍ جسماني مستقل، كما هو دأب لسان العرب في التشبيه. وأما الأمر بالدخول في النار، فليس إنشاءً تكليفياً حقيقياً، بل امتحان إظهاري لتمييز أهل الطاعة عن أهل الإباء، كما دلّ عليه صيرورتها برداً وسلاماً على أصحاب اليمين، وهو شاهد على أن المدار هو الامتثال لا نفس الفعل. وتفسير البيضاوي ره للآية يؤكد أن الإشهاد تنزيلٌ لتمكين العقل والفطرة منزلةَ الإقرار الصريح، دفعاً لعذر الغفلة والتقليد، وهو الموافق لقواعد العدل الإلهي التي قررها أئمة الكلام. وعليه، فالرواية منسجمة مع ظاهر القرآن عند ردّ متشابهها إلى محكمه، وحملها على المعاني اللائقة بجلال التوحيد والتنزيه، من غير تعطيل للنص ولا تجسيم للمعنى.

٢- وروى الكليني ره بإسناده عن حُمْرَان، عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ ع،قَالَ:({ إِنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَ تَعَالَى حَيْثُ خَلَقَ الْخَلْقَ خَلَقَ مَاءً عَذْباً وَ مَاءً مَالِحاً أُجَاجاً فَامْتَزَجَ الْمَاءَانِ فَأَخَذَ طِيناً مِنْ أَدِيمِ الْأَرْضِ فَعَرَكَهُ عَرْكاً شَدِيداً فَقَالَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ وَ هُمْ كَالذَّرِّ يَدِبُّونَ إِلَى الْجَنَّةِ بِسَلَامٍ وَ قَالَ لِأَصْحَابِ الشِّمَالِ إِلَى النَّارِ وَ لَا أُبَالِي ثُمَّ قَالَ:{ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ قالُوا بَلى شَهِدْنا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غافِلِينَ}[سورة الاعراف، الآية ١٧٢]، ثُمَّ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى النَّبِيِّينَ فَقَالَ:{ أَ لَسْتُ بِرَبِّكُمْ}[سورة الاعراف، الآية ١٧٢]، وَ أَنَّ هَذَا مُحَمَّدٌ رَسُولِي وَ أَنَّ هَذَا عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ قَالُوا بَلَى فَثَبَتَتْ لَهُمُ النُّبُوَّةُ وَ أَخَذَ الْمِيثَاقَ عَلَى أُولِي الْعَزْمِ أَنَّنِي رَبُّكُمْ وَ مُحَمَّدٌ رَسُولِي وَ عَلِيٌّ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ وَ أَوْصِيَاؤُهُ مِنْ بَعْدِهِ وُلَاةُ أَمْرِي وَ خُزَّانُ عِلْمِي وَ أَنَّ الْمَهْدِيَّ أَنْتَصِرُ بِهِ لِدِينِي وَ أُظْهِرُ بِهِ دَوْلَتِي وَ أَنْتَقِمُ بِهِ مِنْ أَعْدَائِي وَ أُعْبَدُ بِهِ طَوْعاً وَ كَرْهاً قَالُوا أَقْرَرْنَا يَا رَبِّ وَ شَهِدْنَا وَ لَمْ يَجْحَدْ آدَمُ وَ لَمْ يُقِرَّ فَثَبَتَتِ الْعَزِيمَةُ هَؤُلَاءِ الْخَمْسَةِ ﷺ فِي الْمَهْدِيِّ×، وَ لَمْ يَكُنْ لِآدَمَ عَزْمٌ عَلَى الْإِقْرَارِ بِهِ وَ هُوَ قَوْلُهُ عَزَّ وَ جَلَ: {وَ لَقَدْ عَهِدْنا إِلى آدَمَ

مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً}[سورة الاعراف، الآية ١٧٢]،قَالَ إِنَّمَا هُوَ فَتَرَكَ ثُمَّ أَمَرَ نَاراً فَأُجِّجَتْ فَقَالَ لِأَصْحَابِ الشِّمَالِ ادْخُلُوهَا فَهَابُوهَا وَ قَالَ لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ ادْخُلُوهَا فَدَخَلُوهَا فَكَانَتْ عَلَيْهِمْ بَرْداً وَ سَلَاماً فَقَالَ أَصْحَابُ الشِّمَالِ يَا رَبِّ أَقِلْنَا فَقَالَ قَدْ أَقَلْتُكُمْ اذْهَبُوا فَادْخُلُوهَا فَهَابُوهَا فَثَمَّ ثَبَتَتِ الطَّاعَةُ وَ الْوَلَايَةُ وَ الْمَعْصِيَةُ). (الكليني ،ط١، ١٤٠٧ هـ، الكافي :ج٢/ ٨.).

بيان بعض ألفاظ الرواية:

قوله ع : (فأخذ طينا)،من اديم الارض أي أخذ طينًا من الارض التي امتزج الماء ان عليها ليحصل في الخلق استعداد الخير و الشر.

وقوله ع :(إلى الجنة بسلام)، أي امضوا إليها سالمين من العذاب و النكال أو إلى ما يوجب الجنة سالمين من شبه الشياطين و وساوسهم.

و قوله ع :(ثم أخذ)، لعل كلمة(ثم) هنا للتراخي الرتبي لا الزماني لما بين الميثاقين من التفاوت و إلا فالظاهر تقدم أخذ الميثاق من/ ٣٤/ النبيين على غيرهم كما أن ميثاق أولي العزم مقدّم على غيرهم أيضا، و أريد بأولي العزم نوح، و إبراهيم، و موسى، و عيسى، و محمّد (صلوات الله عليهم)، و لا ينافي دخول الإقرار بنبوة نبينا ‘، فيما عهد إليهم دخوله’ في المعهود إليهم.

قيل: و لما كانوا معهودين معلومين جاز أن يشار إليهم بهؤلاء الخمسة مع عدم ذكرهم مفصلا و إنّما زاد في أخذ الميثاق على من زاد في رتبته و شرفه، لأن التكليف إنّما يكون بقدر الفهم و الاستعداد فكلما زاد زاد و أنّما يعرف مراتب الوجود من له حظّ منها و بقدر حظّه منها.

و أما آدم ع، فلما لم يعزم على الإقرار بالمهدي ع، لم يعد من أولي العزم و إنّما عزم على الإقرار بغيره من الأوصياء.

و قوله ع :(إنما هو فترك)، يعني معنى فنسي هنا ليس إلا فترك و لعل السرّ في عدم عزمه

ع على الإقرار بالمهدي ع استبعاده أن يكون لهذا النوع الإنساني اتفاق على أمر واحد .

و قوله:(إنّما هو فترك)، أي معنى النسيان هنا الترك، لأن النسيان غير مجوز على الأنبياء ع، أو كان في قراءتهم ، فترك مكان فنسي أو المعنى أن العزم إنّما هو ما ذكر أي العزم على الإقرار المذكور فترك آدم ع، أو كان المطلوب الإقرار التام و لم يأت به أو عزم أولا ثم ترك و الأول كأنّه أظهر (المجلسي،ط٣، ١٤٠٣ هـ، بحار الانوار: ج٧ / ٢٤).

ويتبين مما تقدم قد انتظمت في الرواية مقامات الخلق، والفطرة، والولاية، على أسلوبٍ تمثيليٍّ كاشف عن حقائق الاستعداد لا عن وقوع الأفعال على ظواهرها الحسيّة. فخلق الماءين وامتزاجهما إشارةٌ إلى أصل القابليات المتقابلة في البشر لا إلى عِلّيةٍ مادّيةٍ محضة، وأخذ الطين من أديم الأرض كناية عن جامعِيّة الإنسان بين الاستعداد للخير والشر.

وقوله: (إلى الجنة بسلام) تنزيلٌ للعاقبة منزلة المقصود، أو لما يوجبها من الطاعة الخالصة. وأمّا تكرار الميثاق وتفاضله، فبـ(ثم) الرتبية لا الزمانية، إذ المراتب محفوظة، والميثاق يشتدّ بقدر الشرف والاستعداد، كما قرّره أهل الحكمة والكلام. وتخصيص أولي العزم بالتصريح إنّما هو لتمام القابلية وكمال الفهم، ولذلك زيد عليهم الإقرار بالولاية والمهدي ع. وأما نفي العزم عن آدم ع فمحمول على ترك الاهتمام الخاص أو عدم الإقرار اللساني التفصيلي، لا على نفي التصديق أصلًا، إذ ذلك ممتنع في حق الأنبياء، ويؤيده تفسير (فنسي) بـ(فترك)، وهو مجاز لغوي شائع، دفعًا لتوهّم النقص، وحفظًا لأصول العصمة والتنزيه.

٥-١:الخاتمة :

إن دراسة أخبار الطينة والميثاق عند المتقدّمين تُبرز مرحلةً تأسيسيةً في الفكر الإمامي، حيث تُمثّل هذه الأخبار جسرًا بين التداول الروائي الأول وبين التنظير العقدي اللاحق، وقد اتضح من خلال التحليل النقدي أن هذه الأخبار لم تُقدَّم في مرحلة المتقدّمين ضمن نظرية كلامية متكاملة، بل جاءت متناثرة في أبواب الإيمان والكفر، والتوحيد، والحجة، والبداء، الأمر الذي أفضى إلى إشكالات تتعلق بالعدل الإلهي والاختيار البشري والجبر المحتمل.

وقد أظهرت دراسة النصوص القرآنية، ولا سيّما آية الميثاق في سورة الأعراف (٧:١٧٢)، أن الميثاق لا يُقصد به التعيين الجبري للمصير، بل هو تأسيس معرفي يوضّح مسؤولية الإنسان أمام الله، ويؤكد على استقلالية النفس ووجوب الاختيار، ومن هنا فإن الأخبار الروائية المتعلقة بالطينة والميثاق تُفهم في ضوء الأصل القرآني للعقل والعدل، بحيث لا يُحتج بها في الإلزام أو التحديد القهري للإنسان، بل في بيان الاستعداد الفطري والامتداد الوجودي للنفس البشرية.

كما بينت المباحث أن المتقدّمين – من الشيخ الكليني، والشيخ الصفار إلى الشيخ الصدوق ره كانوا يقدّمون هذه الأخبار في سياقها الروائي أو الغيبي مع ترك مجال واسع للتأويل أو التقييد سعياً للحفاظ على انسجامها مع العدل الإلهي ونفي الجبر، وقد برزت مرحلة لاحقة في القرن الرابع والخامس الهجري مع أعلام المدرسة الكلامية الإماميّة من الشيخ المفيد والسيد المرتضى والشيخ الطوسي ره، حيث تم الجمع بين النقل الروائي والتحليل العقدي، والتأويل بما يحقق التوازن بين الأخبار الغيبية وأصول العقيدة الإماميّة، خصوصًا العدل الإلهي وحرية الاختيار والمسؤولية التكليفية.

وتكشف الروايات المتعلقة بالطينة – سواء في الكافي أو بصائر الدرجات أو غيرها – عن دلالات وجودية وروحية عميقة: فخلق المؤمن من طينة الجنة وخلقه المرتبط بالأنبياء ع، والأئمة ع، يرمز إلى استعداد النفس للخير والارتباط بالفيض الإلهي، في حين يرمز خلق الكافر أو المستضعف من طين النار أو التراب إلى محدودية القابلية وانفتاحها على التأثيرات المختلفة. وهذا يشير إلى حكمة إلهية في التمييز بين البشر، مع الحفاظ على حرية الاختيار وحق التكليف.

وفي ضوء ذلك، يمكن استخلاص النتائج الرئيسة التالية:

– أخبار الطينة والميثاق لدى المتقدّمين تُعدّ نصوصًا تأسيسية، وليست قواعد عقدية جاهزة للتطبيق الحرفي.

– ضبطها وتحليلها في ضوء النصوص القرآنية وأصول العدل والإرادة يضمن عدم

الانزلاق إلى الجبر أو التعيين القهري.

– المتقدّمون اعتمدوا النقل والروية، مع ترك التأويل والتحليل للمدرسة الكلامية اللاحقة، التي صاغت نظرية متكاملة تعالج التناقضات الظاهرية.

– دلالات الطينة والميثاق تتجاوز المادة الحسّية لتشمل الاستعدادات الوجودية والنورانية للإنسان، ما يربط بين الغيب والمادة والنية والعمل البشري.

– منهج دراسة هذه الأخبار يستلزم التمييز بين مقام النقل ومقام التبنّي العقدي، والاقتصار على التأويل أو التقييد عند التعارض مع المحكمات القرآنية وأصول العدل الإلهي.

وهكذا، إذا انكشف وجهُ الأخبار على ضوء الأصول، وتآلف النصُّ مع العقل، بان أن الطينة ليست قيدًا على الإرادة، ولا الميثاق حكمًا سابقًا على الاختيار، بل هما شاهدان على عناية الحق بالإنسان منذ بدء الخلقة إلى قيام الحجة. فمِن طينٍ سُوّي الجسد، وبالميثاق استقام المعنى، وبالاختيار اكتملت المسؤولية، وعلى هذا المدار دار الفهم الإمامي في قراءته للنقل، جامعًا بين ظاهر الرواية وروح العدل، وبين أثر النص ومقتضى الحكمة. ومن هنا تبلورت معالم الإنسان المكلَّف، لا مسلوب الإرادة، ولا متروكًا سُدى، بل شاهدًا على نفسه، مرتبطًا بالحق، ومسؤولًا عن مسيره، {لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ}[سورة الأنفال، الآية : ٤٢]. والحمد لله ربّ العالمين.

المصادر والمراجع:

١. القرآن الكريم

٢. ابن بابويه القمي، محمد بن علي (الشيخ الصدوق) (ت ٣٨١ هـ)

٣. التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، دار المعرفة، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ، قم.

٤. علل الشرائع، تحقيق: علي أكبر الغفاري، منشورات المكتبة الحيدرية، الطبعة الأولى، ١٣٨٥ هـ، النجف الأشرف.

٥. ابن منظور، محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ)، لسان العرب، دار صادر، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، بيروت.

٦. البيضاوي، عبد الله بن عمر (ت ٦٨٥ هـ)، أنوار التنزيل و أسرار التأويل ، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ، بيروت.

٧. التهانوي ، محمد علي بن علي (ت ١١٥٨ هـ)، كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الأولى، ١٩٩٦ م، بيروت.

٨. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ)، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ، بيروت.

٩. الراغب الأصفهاني، الحسين بن محمد (ت ٥٠٢ هـ)، مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، دار القلم، الطبعة الأولى، ١٤١٢ هـ، دمشق.

١٠. الطباطبائي، محمد حسين (ت ١٤٠٢ هـ)، الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، الطبعة الثانية، ١٤١٧ هـ، بيروت.

١١. الطوسي، محمد بن الحسن (الشيخ الطوسي) (ت ٤٦٠ هـ)، الاقتصاد فيما يتعلق بالاعتقاد، تحقيق: السيد محمد باقر الموحد الأبطحي، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٩ هـ، قم.

١٢. الكليني، محمد بن يعقوب (ت ٣٢٩ هـ)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤٠٧ هـ، طهران.

١٣. الكاشاني، محمد بن مرتضى (الفيض الكاشاني) (ت ١٠٩١ هـ)، الوافي، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، مكتبة الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، الطبعة الأولى،١٤٠٦ هـ، قم.

١٤. المجلسي، محمد باقر بن محمد تقي (العلامة المجلسي) (ت ١١١١ هـ):

١٥. بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهارع، تحقيق: جماعة من المحققين، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الثالثة،١٤٠٣ هـ، بيروت.

١٦. مرآة العقول في شرح أخبار آل الرسول، تحقيق: السيد هاشم الرسولي المحلاتي، دار الكتب الإسلامية، الطبعة الثانية،١٤٠٤ هـ، طهران.

١٧. المفيد، محمد بن محمد بن النعمان (الشيخ المفيد) (ت ٤١٣ هـ):

١٨. تصحيح اعتقادات الإمامية، تحقيق: حسين درايتي، مؤتمر الشيخ المفيد، الطبعة الأولى، ١٤١٤ هـ، قم.

١٩. أوائل المقالات في المذاهب والمختارات، تحقيق: مهدي نجف، مؤتمر الشيخ المفيد، الطبعة الثانية، ١٤١٣ هـ، قم.

٢٠. المرتضى، علي بن الحسين الموسوي (الشريف المرتضى) (ت ٤٣٦ هـ):

٢١. الذخيرة في علم الكلام، تحقيق: السيد أحمد الحسيني، مؤسسة النشر الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ، قم.

٢٢. الشافي في الإمامة، تحقيق: عبد الزهراء الحسيني الخطيب، مؤسسة الصادق، الطبعة الأولى، ١٣٩٠ هـ، طهران.

٢٣. النعماني، محمد بن إبراهيم (ت نحو ٣٦٠ هـ)، الغيبة، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار المعارف الإسلامية، الطبعة الأولى، ١٤١٧ هـ، قم.

٢٤. الصفّار القمي، محمد بن الحسن (ت ٢٩٠ هـ)، بصائر الدرجات في فضائل آل

محمد (ع)، تحقيق: ميرزا محسن كوچهباغي، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، الطبعة الأولى، ١٤٠٤ هـ، قم.